المبحث الثالث

الكناية وسياقها النسقي

الكناية لغةً: ما يتكلم به الإنسان ويريد به غيره، وهي مصدر كَنّيتُ، أو كَنوتُ بكذا عن كذا؛ إذا تركت التصريح بهِ.

واصطلاحاً: لفظ أطلق وأريد بهِ لازمُ معناه مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي.

وهي على نوعين: إمّا مطلقة أو غير مطلقة.

والمطلقة: هي ما يطلب منه نفس الموصوف، وهي إمّا لمعنى واحد وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(1) أي: عني بالمجموع المتقون، ولاستواء هذه الكناية بين المكنى والمكني عنه يتمكن المتكلم من وضع الوصف موضع العلم. كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾(2) وإنما يكون جواهم الله فحسب، فوضع الآيات موضعه، والمعنى

---

(1) البقرة: ٢.

(2) الزخرف: ٩-١٤.

لينسبنَّ خلقها إلى الذي يوصف بهذه الأوصاف، ومنه مصداق لقوم من ذهب إلى أنّ اسم الله دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها.

وغير المطلقة وتنقسم باعتبار الوسائط (اللوازم) والسياق إلى أربعة أقسام: تعريض وتلويح ورمز وإيماء.

التعريض:

هو الكلام المشار به إلى جانب، وإيهام أنّ الغرض جانب آخر، وسمي تعريضاً لما فيه من التعوج عن المطلوب، ويقال: نظر إليه بعرض وجهه: أي جانبه، ومنه المعاريض في الكلام وهي التورية بالشيء عن الشيء، وفي المثل أنّ المعاريض لمندوحة عن الكذب. ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾[1] أراد به محمداً ﷺ إعلاءً لقدره، أي: أنّه العلم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس. أو ملاطفةً به كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أو احترازاً عن المخاشنة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[2] أو إهانة وتوبيخاً ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير،آية: ٨] وقال تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة، آية: ١١٦][3] أو استدراجاً له هو إرخاءِ العنان مع الخصم ليعثر حيث يراد تبكيته وهو من مخادعات الأقوال حيث يسمع الحق على وجه لا يزيد غضب المخاطب، وقال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة سبأ، آية: ٢٥] وقال

---

(١) الأنعام: ١٦٥.

(٢) البقرة: ٢٣٥.

(٣) ينظر: التبيان في البيان: ١٢٨.

تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة سبأ، آية: ٢٤] يبعثهم على الفكر في حال أنفسهم وما هم عليه من العبث والفساد وعبادة الأصنام وحال نفسه والمؤمنين وما هم عليه من الإصلاح وعبادة الملك العلاّم ليعلموا أنّ المسلمين على أعلى العليين وهم في أسفل السافلين، وهذا من روائع النسق القرآني من خلال مجيء سياق كنايات القرآن على أعلى درجة من التوافق والترتيب سواء أكانت توافقاها اللغوية والتركيبية والصوتية والصرفية، وهذا السياق النسقي يُضفي على الآية جوّاً فريداً ورائعاً يجعل المتأمّل فيها يعيش أجوائها ويقلّب فكره في جمالها وتناسبها.

الرمز:

هو ما يشار به إلى المطلوب من قرب مع خفاء[1]، ونعني بالقرب أن ينتقل إلى المطلوب إلى لازم واحد، وبالخفاء ضعف اللزوم، وسمي رمزاً للطف الإشارة، وقد يكون المطلوب فيه الإخفاء مراعاةً للموصوف، كما قال عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم: «إنك لعريض القَفا» كناية عن البلادة، وتأتي احترازاً من بشاعة اللفظ، كما في الكناية عن الجماع بالإفضاء والغشيان واللمس، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [سورة الأعراف، آية: ١٨٩] أو في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [سورة النساء، آية: ٤٣] وكلها فيها كناية رمزية حددها سياق المقام والحال وهذا النسق في ترتيب مجيء الألفاظ والاحتراز والتقيد في استخدام لفظ دون آخر من روائع القرآن الكريم إعجازاً وترتيباً ونسقاً وجمالاً؛ إذ تأتي الألفاظ في غاية الدقة احترازاً من خدش السمع وحياءً مع القارئ والمتلقّي، وهذا من الأدب الرفيع الذي

---

(١) ينظر: التبيان في البيان: ١٢١.

جاءت به الكثير من آيات الذكر الحكيم التي تحمل الموضوع نفسه.

ويأتي للاستهجان في الصفة: كما في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [سورة البقرة، آية: ١٨٧] تقبيحاً لما وجد منهم قبل الإباحة وكما سمّاه إتياناً، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ [سورة الأعراف، آية: ١٤] تصويراً لشدة ندمهم فإنّ من شأن المتندم أن يعضّ يده(١).

التلويح: لغةً:

أن تشير على غيرك من بُعد، مع خفاء يعني بالبعد أن ينتقل الملزوم بوساطة لوازم؛ وسمي تلويحاً لبعد المطلوب.

ومنه قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة البقرة، آية: ٧] على أصول المعتزلة فإنّ الختم والتغطية مشعران بأنّ الله تعالى لم يقسرهم ولم يلجئهم إلى الإيمان، وترك القسر والإلجاء مشعر بأنّ الإلجاء والقسر مقتضى حالهم؛ لأنّ الترك إنما كان ينتقص غرض التكليف وإلا كان الحق أن يقسروا؛ لأنّه هو الطريق إلى إيمانهم وكون القصر والإلجاء مقتضى حالهم مشعر بأنّ الآيات والنذر لا تغني عنهم، والألطاف لا تجدي عليهم، وكون الآيات والألطاف لا تنفعهم مشعر بأنّ ترامي أمرهم في التصميم إلى أقصى غاياته ومدى نهاياته، والله أعلم. فهذه الاختيارات وهذا النسق العجيب في مجيء هذه الألفاظ مرتبة أضفت شرحاً للنص إعجازاً وسعةً ومدلولاً جديداً. وهذا من عجائب هذا الكتاب المعجز.

(١) التبيان في البيان: ١٢١.

ويتمثل هذا البعد النفسي في الخفاء والستر الذي يصطنع إسداله المنشئ على المعنى الذي يريده أساساً مع التلويح والإشارة إليه، إذ إنّ ذلك يجعل المعنى أوقع في النفس والصورة أقدر على إحداث الاستجابة المناسبة ففي الصورة الكنائية إيهام، لكنه ليس ملغزاً وإنما إيهام يحمل مفتاحه معه، إذ إنّ عناصر الصورة الكنائية التلويحية قد اختيرت ونسّقت تنسيقاً فنيّاً دقيقاً، بحيث يصح تفسيرها، ويتوافق إطلاقها مع ما أريد به لازم معناها(١).

الإيمـــاء:

هو الكلام المشار به إلى المطلوب من قريب لا مع الخفاء، يعني بعدم الخفاء قوة اللزوم وسمي إيماء، لظهور المشار إليه. وهي إمّا لتخصيص الصفة بالموصوف ومنه قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ...﴾ [آل عمران، آية: ١٤] جعل المشتهيات عين الشهوات قصداً إلى تجنّبها؛ فإنّ الشهوة مسترذلة عند الحكماء وإلى التخصيص أشار الزمخشري بأداة الحصر حيث قال: إنّ المزين لهم حبه ما هو إلاّ الشهوات لا غير(٢).

ومن القبيل في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ بحسب التعريف كما مرَّ ويقرب منه العدول عن التعبير بالوصف إلى جعل الموصوف واحداً ممن اشترك فيه، كالعدول من نحو فلان عالم إلى: هو من العلماء، وإيذاناً بأنّ له مساهمة معهم في العلم، وأنّ الوصف كاللقب المشهود له كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [سورة الشعراء، آية: ١٦٨] ومنه أيضاً قوله

---

(١) ينظر: بحوث منهجية في علوم البلاغة العربية: ٢١٥.

(٢) ينظر: التبيان في البيان: ١٢٤؛ والكشاف: ١/٣٨١.

تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ [الفرقان، آية: ٣٧] إنّما كذبوه وحده، لأنّ الرسالة وصف جامع فيلزم من تكذيبه تكذيبهم إن حُمِلَ اللام على الاستغراق، والمتأمل لسياق الآية يجد إنّ نسق عبارتها هو من حدد جمالية الإيماء من خلال لفظة ﴿كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ والتكذيب صفة لهم، وإنما كذبوا رسولهم وهو سيدنا نوح دون غيره، ولكن هذا فعل يقوم به بقية أقوام الأنبياء من خلال تكذيب أنبيائهم وهذه الصورة الجامعة المتسقة والمرتبة هي غاية الوصف والدقة لكل ما يأتي به الأنبياء من وصف لأقوامهم وهي أيضاً تسلية وإشارة للنبي محمد ﷺ أي: يا محمد إنّ قومك سيكذبوك مثلما كذبت رسل قبلك وسيدنا نوح واحد منهم.

ومن أمثلة نفي الشيء بنفي لازمه، قال تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ ...﴾ [سورة يونس، آية: ١٨] أي: لا ثبوت له ولا علم الله متعلق به، إذا لو ثبت لتعلق العلم به لشمول علمه جميع الكائنات ومنه قوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [سورة البقرة، آية: ٢٧٣] وصفوا بالتعفف عن السؤال بحيث لا يعلم حالهم إلاّ صاحب فراسة، ولمّا أريد المبالغة والتتميم قيل: ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾ أي: ليس لهم سؤال فيكونوا ملّحين فإذاً لا سؤال بتّاً، أو ليس لهم سؤال في حالة الاضطرار، فانتفاؤه في غيرها بالطريق الأولى أي: لو وجد منهم سؤال لم يكن إلاّ على ذلك التقدير فأفاد أنهم يشرفون على الهلاك ولا يسألون(١).

وهذا من روائع ترتيب نسق الآية وسياقها البلاغي، إذ إنّ مجيء لفظة

---

(١) ينظر: التبيان في البيان: ١٢٦.

(بسيماهم) دلّت على سياق شكلهم أنهم أغنياء ولكنّ هذا الغنى هو غنى التعفف بعيدون كلّ البعد عن المسألة وطلبها. ثمّ هذا الترتيب والنسق بين لفظتي (يحسبهم وتعرفهم) أعطى جمالاً صوتيّاً ونسقاً موسيقيّاً لدلالة هؤلاء على عظيم فعلهم وسمو نفسيتهم، وهذه من جماليات الإيماء وروعة الكنايات. ومنه قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [سورة غافر، آية: ١٨] والغرض نفي الشفيع، وإنما ضمّت إليه الصفة ليؤذن بأنّ انتفاء الموصوف أمر محقق لا نزاع فيه وبلغ في تحقيقه إلى أن صار كالشاهد على نفي الصفة، وعكسه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [سورة غافر، آية: ٥٢]؛ لأنّ الأصل ليس لهم معذرة نافعة فجعل انتفاء النفع دليلاً على انتفاء العذر، أي: إذا لم تحصل ثمرة العذر فكيف يقع ما لا ثمرة له، فينتفي النفع وبالطريق البرهاني؛ لأنّ الصفة لا تتأتى بدون موصوفها، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ [الأعراف، آية: ٢٠] أي: الحرج لو كان مما ينهى لنهيناه عنك، فانتهِ أنتَ عنه بترك التعرض له[١]. وهذه الآيات وترتيب نسقها ومجيء سياقها يوضح جمال الكناية وروعة إيمائها وكأنّها توضح باستجلاء ما غمض من النصوص وهذا من جمال القرآن الكريم وروعة تناسقاته سواء أكانت التعبيرية أم الصوتية أم اختياراته للألفاظ وروعة نسقها وسياقها؛ إذ كلّ لفظة في مكانها تعطي مدلولاً جديداً لها. وهذا من كمال إعجاز كتاب الله.

(١) ينظر: التبيان في البيان: ١٢٦-١٢٧.

❑ نماذج من روائع الكنايات القرآنية وبلاغة نسقها:

قال تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة، آية: ٧٥].

فجمال الكناية وبلاغة روعتها وحسن نسقها جاءت في قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ وهي كناية عمّا لابدّ لأكل الطعام منه وهو قضاء الحاجة عند كلّ منهما، وفي هذا التعبير تسامٍ رائع وترفع عن التصريح، وذلك لمترلته سبحانه -جلّ شأنه- من جهة مما لا يليق بها التصريح عن المعنى، فهو -جلّ ثناؤه- كريم يكنّي، ومن جهة أخرى تكريماً للعبدين الطاهرين الصالحين. فإنّ الجو النفسي الذي يوحيه قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ في نفس المتلقي يختلف عن الجو الذي كان سيخلفه التعبير لو جاء مصرّحاً بقضاء الحاجة. فالآية الكريمة يرسم ظاهر لفظها صورة المسيح وأمه -عليهما السلام- وهما يأكلان الطعام، والطعام حاجة ضرورية لإدامة الحياة ومواصلتها، والانطباعات النفسية والذهنية السابقة عنها جميلة محببة، فدلالتها الإيحائية تكون محببة أيضاً فجاء السياق ليدلل ويؤكد على عظيم هذا الحب من خلال اختيار اللفظة ونسقها المؤدب والمهذب جمالياً، والتي ولدت في نفس المتلقي إيجاباً ملائماً، وانفعالاً رائعاً لتقبل الصورة، وهي في الوقت ذاته تشير إلى قضاء الحاجة للتلازم بينهما(١). هذا السياق أضفى للآية ولمدلولاتها غاية الجمال وكمال الإعجاز.

ومن الأمثلة الأخرى على روائع الكنايات قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ

---

(١) ينظر: بحوث منهجية في علوم البلاغة العربية: ٢١٨.

﴿تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [المنافقون، آية: ٥].

والآية جزء من سياق يتحدث عن المنافقين وما امتلأت به نفوسهم من الغرور والصلف والكِبر، وهذا ما وضحته وتكفّلت به هذه الكناية الرائعة بالتعبير عنه، وهو موضوع الشاهد في الآية الكريمة فقوله تعالى: ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾ فيه إشارة وإيماءِ إلى موقفهم الرافض لما عرض عليهم من استغفار الرسول ﷺ، ذلك لأنّ الصفة التي تلزم من ليّ الرأس في الرفض والإعراض، لأنّ الرافض للشيء والمعرض عنه يعمل ذلك عادة. فليّ الرأس في مثل موقف المنافقين ذاك من طلب رسول الله ﷺ كناية عن الرفض والإعراض.

فالمعنى الصريح هنا (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله رفضوا وأعرضوا) وهذا أمر معنوي تدخلت فيه الكناية فجسمته وأظهرته للعيان في صورة الاستغفار لهم فيلوون رؤوسهم رافضين معرضين، ولنا أن نتصور تلك الحركة التي قاموا بها حين جاءهم هذا العرض الكريم. ففي هذه الحركة كشف عن الاستخفاف بما عرض عليهم، وزراية به، وتقليل من قيمته.

ومن الأمثلة الأخرى قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ [القلم: ١٦] أي: لصق به عاراً لا يفارقه كما أنّ السمة لا تنمحي ولا تزول، والخرطوم أنف الفيل فسمى أنفه خرطوماً استقباحاً له(١).

وجاء التعبير القرآني معبّراً بذلك كناية عن غاية الإذلال فأعطى للصورة حجماً أكبر لهدف في اقتضاه السياق القرآني، فهذا الأنف رمز العزة الشامخ

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: مادة (خرط).

أنفةً وكبرياء، طال فتدلى وصار رمزاً للذلة والمهانة وتشوهت صورة ذلك المتكبر فبدل من أن يكون له أنف شامخ صار له خرطوم طويل يلصق بالأرض وحينئذٍ سيضحك عليه الناس ساخرين هازئين وسيكون هذا الخرطوم ساحة لصورة تعبيرية أخرى عن العذاب وسماً وحرقاً يوم القيامة وناسب ضخامة العضو فيها ضخامة العذاب نفسياً وجسدياً، ولاشك في إنّ هذه المبالغة العظيمة في مذمة الوليد بن المغيرة بقيت على وجه الدهر(١). وإنما ذكر هذا اللفظ على سبيل الاستخفاف به؛ لأنّ التعبير عن أعضاء الناس بالأسماء الموضوعة، لأشباه تلك الأعضاء من الحيوانات يكون استخفافاً، كما يعبّر عن شفاه الناس بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر(٢).

والمتفحص لهذه الكنايات يجد إنّ السياق القرآني هو من أعطى زخماً قوياً لفهم العبارة، ودقة وجمالية لزيادة معناها ومن خلال هذا السياق واختيار العبارة والمفردة جاءت ألفاظ هذه الكنايات في غاية الترتيب والنسق من حيث روعة الاستعمال ودقة اختيار المفردات. وهذه الكنايات وغيرها كثير مما تدلل على إعجاز كتاب الله وروعة جماله ودقة بيانه وجمال نسقه العجيب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه.

---

(١) ينظر: التعبير الفني في القرآن: ٢٦٤.

(٢) ينظر: تفسير الرازي: ٦٠٦/٣٠؛ والتصوير البياني في المشاهد الكونية دراسة في الأنماط والوظائف: ٢٩٦.